

عادل الغضبان

مثلما تبقى الذكريات بأعمارها المديدة وآثارها الراسخة على ترادف الأيام، وقد مرت على النيل بأحداث وشخوص وتاريخ ووقائع، كذلك تبقى ذكريات الفن والأدب حية قوية، وهي تطل على النيل كأنها تتراءى في مرآته الصافية، ولو كان للنيل سجل ادبي حديث، كما صنع له في القديم صاحب النجوم الزاهرة، لبرزت للعيان والأذهان صفحات والواح تتحدث بسيرة كل عربي، فذ، أدى رسالته من على ضفاف النيل وشرب من مائه حتى ارتوى، وآثر القرار في ربوعه مجاهداً وطنياً، او مفكراً حراً، يدعو للخير العام، ويشارك في بناء النهضة الجديدة.

من هؤلاء الأفذاذ الذين أحبوا النيل ووهبوا حياتهم لبلاده وللعروبة التي تجتمعها، الأستاذ عادل الغضبان، فقد جاء مصر من شهباء سيف الدولة فتى غض الاهاب، متوقد الفكر والآمال، يرمى بنظره شطر الافق حيث يجد حمى العربية، وبسطه الثقافة والمعيشة للطامع الأتبي، الذي ضاق بأمله ويأمله موطن تتنازعه الملمات

وتتجاوز به التيارات التي لا بست يقظته، وهبت للتحرر والقضاء على كل عابث بحقه، في الحياة الحرة الكريمة.

ولم يطل شوق الغضبان الى الكنانة، التي احبها طفلاً وناشئاً، قبل ان يراها وقد سبقه اليها أهل وانداد، مارسوا الصحافة والوظيفة والتجارة شأن الشاميين المتمصرين، الذين نزحوا الى وادى النيل، منذ الحكم العثماني، وبداية الاحتلال الأجنبي، فانحدر عادل من الشمال الى الجنوب، على دوى الصيحات التي كانت تنبعث في ارجاء العرب، وكان اكثرها ينطلق من القاهرة التي شده اليها شوق وطموح.

كان بين جنبيه خافق يلهمه الخير والدأب والنبوغ، وكان قبساً من المتنبى الذي عاش في حلب قد أضاء له الطريق وزين الغد القريب، فأقبل على مصر لهيفاً مشوقاً في ريعان العمر يلتمس بناء علمه ومجده، لا ليلتمس سيادة ضيعة او ولاية بلدة كما شاء المتنبى الذي صده كافرور وخيب تأميله ومطامعه، لكن الفتى المهاجر الذي انطلق من ملعب طفولته ودار حدائثه طالبا للعلم، تفتح قلبه على حب مصر والعيش في رحابها ورضى في حماها بما قسم القدر، وقد أوتى غنى النفس وسعة الرجاء والذكاء، فاتخذ التدريس وسيلة للحياة والمجتمع، يهب فيها من شبابه وادبه، ومن لباقتة ومعرفته للجيل الذي اتصل به بعد تخرجه من اكبر معهد للآباء اليسوعيين في القاهرة، وتلقيه فنون الكلام وقواعد البلاغة والبحث على الثقات من المتبحرين. على ان المتمرس بالتدريس إذا كان

موهوباً دؤوباً كان تأثيره فى تلاميذه والواثقين به ابعده من تأثير
المخترف المتخفف، فهو ذو رسالة. يشبه العندليب حين يغرد، لأن
التفريد منحة الهية لهذا الهزار، وانفعال فطرى يحسه الناس فناً رفيعاً.

وما كان لاديب مطبوع ان يقنع بما اتبع من ثقافة مرسومة
ومنهاج محتوم، فعكف الغضبان على كل ما يحقق التبعات التى
حملها راضياً، فقرأ كثيراً ومحص طويلاً حتى أحكم الوسيلة بينه
وبين طلابه الذين بادلهم ودأ بود لقنهم خفايا المعرفة وفتح قلوبهم
لوعى الوجود لعلهم يأخذون احسن ما فيه، لقد علمهم ان يأخذوا
بالحق والمحبة وان يعطوا بسماح ورضى، وان يعملوا لديانهم نافعين
لانفسهم وللمجتمع الذى يعيشون فيه وللانسانية التى ترتقب غدهم
المأمول بعد ان رأت يومهم الوثاب.

كان عادل الغضبان وهو يؤدى رسالة التدريس يعطى من علمه
وأدبه بوجود وسداد، ويرمى ببصره شطر الافق البعيد، غير منكر لحاله
ولا متبرم بعمله، وان كان فى نفسه مرجل الامل والعزم يغلى
ويغور ليجد منفذاً فى يوم قريب، فاذا ارتد الى كتبه وأوراقه نسى
نفسه وانساب تفكيره وشعوره فى صورها وسطورها، وطافت بخياله
اطياف ذوبها، فأمسك بقلمه معلقاً او محققاً، وطاوعه القلم الملهم
فمبراً فيها عن نفسه التى اشرق الحب فيها وتغذت بالمثل العليا،
وتوالت قراءة الغضبان فى الادب القديم والحديث باللغتين العربية
والفرنسية قراءة متمعة محصية حتى احاط علماً باللغتين والاديين
وهو المطبوع على الشعر قاله صغيراً قبل ان يعرف قيود الفنية وتقاليده

الاصيلة فلما قرأ ما فى دواوين القديم والجديد وازداد تجاوبه مع الطبيعة والحياة، تابع الغضبان القريض غير متمعجل للظهور ولا مستغل للصحافة التى كثيراً ما طمست الحقائق وأظهرت الزيف والباطل .

ولم يكن الشاعر الاديب عادل الغضبان بدعاً فى المدرسين، فقد استهل كثير من الادباء فى الشرق والغرب حياتهم الفكرية بالدرس والتدريس، فكانت الصفحات الاولى التى تلقتهم ليخطوا بوادرهم المتفتحة وبواكيرهم النضرة، هى صفحات اولئك الصغار اطفالاً وشباباً من الجنسين، كتبوا فيها الاعمار والاقدار وكانوا أشبه بانصاف آلهة اعطتهم القدرة الكبرى على الخلق والابداع وتكوين النفوس الانسانية واعدادها للحياة الطيبة النافعة، فلما عادوا الى الكتب يخطون على طروسها وبين سطورها افكارهم وخواطرهم عموماً رسالتهم لتشمل الناس جميعاً، وما رضيت نفوسهم الكبيرة بنطاق محدد او مراد قريب .

وهكذا صنع الغضبان بعد سنين من زهوة عمره ودأب ثقافته وتجاربه فى التربية والتعليم، كان فى خلالها يعد نفسه لرسالة الاديب الكبير فانطلق من أفق المدرسة الى جو الصحافة مسرحاً قلمه فى تصوير الاحداث الدولية والسياسية، وفى ترجمة الشؤون القضائية، موظفاً فى المحاكم الاجنبية حتى زهد فى هذه الكلفة وضاق بأمرها فانصرف الى الصحافة الفكرية التى كانت بمصر والبلاد العربية توقظ الوعي القومى، وتعمل على بعث الامجاد ودعوة الشعوب للتحرر والأخذ بأسباب الرقى والحضارة لتحقيق حياة احسن ومجتمع أفضل .

ولقد فهم عادل الغضبان رسالة الصحافة على النحو الذى فهمها عليه الافذاذ والمصلحون الذين كانت اقلامهم وصحفهم مدارس للجمهور. اما الصحافة المصرية فى ذلك الحين فكانت بين فئة مع الحكم الغاشم تسائر وتداور، وبين فئة من اقطاب المفكرين والاحرار يثيرون القضايا الوطنية ويجهون كل كيد وعدوان، فكان جهادهم مبعث وعى جديد ويقظة تحررية تجاوب صداها فى مصر والبلاد العربية حتى اقبل على الصحافة وعزز رسالتها فريق من كبار الابداء المصريين فى طليعتهم العقاد والمازنى والبشرى وهيكىل وجمعة ومظهر وطه حسين وغيرهم ممن رفعوا قدر الصحافة الى مصاف الكتابة وادخلوا عليها رياحين الفن والتجديد فجمعت بين ثقافة الفكر والنقد، وبين معالجة الشؤون السياسية والاجتماعية، ولا يزال الحنين الى الصحافة يعاود من بقى حياً من هؤلاء الاعلام ويخفق بين جوانحه. واننا ما نزال نحس نفحات اقلامهم وسمو تفكيرهم وآرائهم فى مقالات يكتبونها للصحافة بين الحين والحين.

اما عادل الغضبان الذى جرى قلمه فى الصحافة بانياً موجهاً فكان يعمل فى صمت وتواضع كأحد الجند المجهولين ممن تكتسب المعارك بجهودهم ويحظى القادة بأوسمة النصر جزاء ورمزاً، لقد بقى يجهد فى هذا الميدان ويكابد البلاء والعناء مرتقباً ان يتاح له فى يوم قابل ان يقود الكتيبة، لكن حب الادب كان اكبر من صبره وأقوى من كل اغراء فغلب عليه وجعله يمسك بالصحافة وقلبه متعلق بسحر البيان وابداع الفن. ولم يلبث ان تحول عنها وما يدور

فى فلکها من تراحم وتهاتر وما يتقاسمها من تيارات حزبية وظروف طارئة او طواع لا تتغير ولا تزايلها المحاكاة والمجاملة، على ان اى باحث لا يستطيع ان يمسك بالاسباب النفسية الخفية التى قد يجهلها صاحبها، فلا نعلم نقطة الانطلاق فى عادل الغضبان من الصحافة وتكاليقها الى مجال الادب الذى تبجح فيه وبنى نفسه، ولو سألوه ذاته لفكر طويلاً، وربما لم يهتد الى العلة الاولى.

لقد انفلت على حين غرة من زحمة السياسة والطبقية وضجة الحزبية التى طغت فى مصر يومذاك على الصحافة الى عالم يسوده الفكر الحر والثقافة الرفيعة ويعين على تصوير الحوادث النفسية والحياة العقلية التى تعبر عن مدى التطور الذى خضعنا له ولم نجد بدأ من مسابرة لنلحق بركب الذين تقدمونا علماً وفناً.

وكانت مصر فى هذه الآونة من تلاقى الشرق بالغرب قد تغير تفكيرها وشعورها وفتحت بعد عهد المنفلوطي على تجديد العقاد والمازني وأدب طه حسين والحكيم، فشهد الغضبان معركة القديم والحديث واحتكاك الآراء البالية بالمتطورة، وبقي متبعاً لتطور الفكر والثقافة بين عهدين وجيلين، حتى رأى مولد الادب الحديث، ومضى فى رعيه مع المجيدين والمجددين حافظاً للقديم حرمة وقيمة، متبرماً بسخف الحديث الذى انكرته اللغة وتجافى عنه الفن والاستعداد، وكان الزمن الذى عاش فيه عادل الغضبان بين الحربين العالميتين كان موسماً لنضج تفكيره واشراق تعبيره واتساع ثقافته

وخبرته. ومن حظه في الادب ان الطريق قد مهدت امامه فلم تضع
جهوده السابقة ولا راحت مع الريح آثاره التي اودعها هواجسه
وتأملاته ولونها باحساسه وخياله، وكانت متنوعة الاشكال والصور،
فمن بواكير اده كانت مسرحية « احمس الاول » وهي تمثيلية
فرعونية استوحاها من تاريخ مصر القديم واستحق باجادتها جائزة
وزارة الشؤون الاجتماعية قبل الثورة. ولا غرو اذا جود الغضبان
الكتابة في الحوادث الفرعونية التي هي بمصر منبع الحضارة والفن،
ومن يقرأ المسرحية او يشهد تمثيلها يدرك فهم الغضبان لروح التاريخ
المصري كما يفهمه ابناء النيل. وهذا الوعي العميق الذي ينبت من
الارض طلع ورسخ في سجايا الغضبان واخلاصه للفن حتى مزج
نفسه بمصر والمصريين وصار واحداً منهم. ومن يستمع لهجته
المصرية ويتتبع حياته الفكرية والاجتماعية يمدده مثلاً في الوفاء والولاء
للوطن الاكبر الذي تفتح له صدره وتلقاه بالود فتأثر آفاقه وانسابت
فيها آثاره وطوف خياله واندمج في حياة اهله وهموم تحررهم من
كل ما يعوق وعيهم ونهضتهم. ولكن تمصر الغضبان واعترز
بمصريته اعتزاز بهرويته، فانه في رسالته الأمانة الرصينة من اوائل
الدعاة للامة الواحدة والمثابرين على الدعة وان عدت السياسة
ومطامع الاستعمار البلاد والاسماء وجددت القيود والحدود.

وشعر الغضبان، منذ قال الشعر، متسم بطابع الوطنية والاحداث
القومية والاجتماعية، فما من خطب ألم يمصر او دهم بلداً من
البلاد العربية الا كان شعر الغضبان صدى لذلك الخطب وصورة

لحوادثه والاضطراب من اجله. وله فى السوانح التى قامت بمصر
للانشاء والتجديد والاصلاح قصائد فى حفولها وندواتها تصور
الوثبة فى الامة المتحفزة والغبطة فى حريتها وخطاها.

اما الجانب الوجدانى فى شعر الغضبان، فهو متمثل فى صوره
العاطفية التى تناولت الغزل العف والوصف الدقيق والمطارحات
الاخوية، وغيرها مما جودت قريحته الخصبة وبشاشته للحياة، وطريقة
الشاعر فى تعبيره تصل شعرنا الحديث بسوابقه الاصلية المتينة التى
حفظت ثراث الفصحى وروعة الفن والاداء، وسجبت حتى عصر
شوقي سلسلة الكلام المنظوم فى أدب العرب.

ولو تفرغ الاستاذ عادل للدراسة الادبية فى منهاجها العلمى
الحديث لتعددت مؤلفاته فيها، فقد اعطى مثالا يحتذى فى كتابه «
نجيب الحداد» جاء مستوفياً للوسائل الجامعة، معنياً بالاسباب والآثار
التى صنعت « الحداد » وكونت عبقريته ووجهت مزاياه. وفى الفن
القصصى كان للغضبان « ليلى العفيفة » التى دلت على طبعه
واتقانه ومشاركته فى هذا الفن الرفيع، كما ترجم عن الفرنسية
روائع فى الرواية والسيرة منها سجين زندا والزنبقة السوداء ودون
كيشوت وغيرها.

وادباء العرب فى كل ارض يذكرون باللهفة والحنين. مجلات
جليلة القدر بعيدة الاثر ظهرت فى مصر بعد « المقتطف » و
« الهلال » وتلقاها الناس على ظمأ وشوق وتوقير، فكانت « الرسالة »

و « الثقافة » مدرستين جوالتين لاقلام الشيوخ المؤسسين والشباب
الموهوبين، ثم برزت لعالم الادب مجلة « الكاتب المصرى » ثم
«الكاتب» التى انشأها دار المعارف بمصر منذ اثني عشر عاماً،
وعهدت بالاشراف على تحريرها، للاستاذ عادل الغضبان. وقد
كانت «الكاتب» مع المجلات السابقة سفارات فكرية وروحية فى
مصر والبلاد العربية تعارفت على صفحاتها اقلام وأعلام، وتلاقت
مواهب وفنون وجمال فيها ميزان النقد والتقويم، وقد اعطت للقراء
نماذج من ادب الشرق والغرب. على ان «الكاتب» بقيت تؤدى
رسالتها بعد احتجاج ريفقاتها حتى وقفت، فكان لوقوفها ضجة
كبيرة فى العالم العربى دلت على محنة الادب فى غياب هذه
المجلات التى كانت مرايا وصوراً لحياتنا الفكرية والفنية، ومدارس
خرجت المواهب والاقلام فى النقد والادب، وأدت للمروية والتاريخ
الحديث فضلاً لا ينسى. وحين خلت الساحة بمصر من المجلات
الجديدة التى تعنى بحياة الفكر وتطور الادب، ظهرت الصحف
الخفيفة التى تسلى القارئ وتستهوى المراهق الحالم بموضوعات
طريفة ظريفة سمها اكثر من دسمها، لكن الرجاء والعزاء فى هذه
الكتب والمنشورات التى لم ينقطع تأليفها وتثقيفها لتدل على اشعاع
مصر فى الفكر والفن والتحرير وحرصها على مكانتها العلمية فى
العالم العربى.

ولما احتجبت «الكاتب» ثقلت اعباء الاستاذ عادل الغضبان،
فقد اصبح يشرف على المحصول الفكرى والثقافى الذى تتعدهه
بالعناية والاتقان اكبر دار للنشر فى مصر والبلاد العربية هى دار

المعارف التي اسسها بمصر منذ سبعين عاماً الاستاذ نجيب م ترى ،
وانه لاحد بناء النشر والطباعة فى وادى النيل .

وبعد فلهذ خطرات متخطفه من سيرة اديب عربى كبير يرعى
الادب المعاصر ويعمل على اظهاره لمصر والبلاد العربية بجد
وحكمة واخلاص ، غير طامع بنفوذ او ثواب إلا رضى الضمير
والرسالة التى نذر عمره لتأديتها للعروبة والوطن ، وكم تراه الحقيقة
والمعرفة جديراً بالتمجيد والتأييد ، حين ننظر الى من يرزقون باسم
الجهاد ، ويحظون بأرفع المراتب وهم اصفار من الكفايات العلمية
والخلفية . ولكم تحسن مجامع اللغة والادب فى مصر والبلاد العربية
حين تقدر للغضبان قدره فتضمه الى اعضائها عاملاً او مراسلاً ،
وتفيد من نقاء لغته وسعة ثقافته ومواهبه . اما شمائله ومزاياه ،
فخلاف لقبه الغضوب ، فما تلقاه إلا رضى النفس وادع الطلعة طلق
الملامح ، لم يزايله الشباب وهوى الطبيعة والجمال فيها ، وهو معها
تلقاء الضفاف الوارفة وما يترامى عليه النظر من افواف النخيل وراء
النيل .

ولو سألت الناس عن إساءة للغضبان لما برز منهم من يقاضيه او
يمسك بتلابيبه ، وكم فى عالم الادب والادباء من اقلام تنفث
الكيد والشر ، ونفوس كدرة لا يصفوها وجدان ولا برهان . اما قلم
الغضبان فعادل عف كاسمه ، وأما نفسه فأصفى من الماء ، وما كان
غضبه إلا لتأييد الحق ، وإشاعة الصدق ، وحماية المثل العليا الانسانية .
